قصة أيوب عليه السلام: حين يكون الصبر عبادة

هناك ابتلاءات تأتي لتغيّر حياتنا، وأخرى تأتي لتكشف لنا حقيقة قلوبنا.

وقد يظن الإنسان أن كثرة البلاء تعني أن الله قد تركه، بينما قد يكون البلاء نفسه بابًا إلى منزلة عظيمة لا يصل إليها الإنسان إلا بالصبر واللجوء إلى الله.

ومن أجمل القصص التي تعلمنا هذا المعنى قصة أيوب عليه السلام؛ ذلك النبي الذي ضرب الله به المثل في الصبر، فقال سبحانه:

«(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)
[ص: 44]»

فما قصة أيوب؟ وما الدروس التي يمكن أن نتعلمها من ابتلائه؟

ابتلاء شديد

ذكر الله تعالى قصة أيوب عليه السلام في أكثر من موضع في القرآن، ومن ذلك قوله سبحانه:

«(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)
[الأنبياء: 83]»

كان أيوب عليه السلام نبيًا من أنبياء الله، وقد ابتلاه الله بالضر، فاشتد عليه البلاء.

لكن اللافت في دعائه أنه لم يعترض على قدر الله، ولم يتحدث بكلمات اليأس، وإنما توجه إلى ربه بكلمات قليلة عظيمة:

(أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ).

لقد ذكر حاله، ثم ذكر رحمة ربه.

وكأن في دعائه رسالة عظيمة:
أنا ضعيف يا رب، وأنت أرحم الراحمين.

الصبر لا يعني ألا تتألم

من الأخطاء التي قد يقع فيها بعض الناس أن يظنوا أن الصابر لا يحزن، ولا يتألم، ولا يشكو.

لكن قصة أيوب عليه السلام تعلمنا أن الإنسان يمكن أن يشعر بالألم، ومع ذلك يبقى قلبه متعلقًا بالله.

فالصبر ليس أن تتظاهر بأنك لا تتألم.

الصبر أن تتألم، لكنك لا تجعل ألمك يقطعك عن الله.

ولهذا لم يمنع البلاء أيوب عليه السلام من الدعاء، ولم يمنعه شدة الضر من حسن الظن بربه.

وهنا يظهر الفرق بين الشكوى إلى الله والشكوى من الله.

فالعبد قد يرفع ضعفه إلى ربه، ويبث حاجته إليه، ويطلب منه الفرج، وهذا من العبادة والدعاء.

دعاء من قلب البلاء

جاء الفرج بعد أن دعا أيوب عليه السلام ربه.

قال الله تعالى:

«(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ)
[الأنبياء: 84]»

ثم قال سبحانه:

«(وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ)
[الأنبياء: 84]»

وفي سورة ص يذكر الله كيف أمر أيوب عليه السلام أن يضرب برجله، فخرج له الماء، وأكرمه الله بالشفاء والفرج:

«(ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ)
[ص: 42]»

ثم قال:

«(وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)
[ص: 43]»

وهكذا تبدل الحال.

الضر الذي طال، انكشف.

والابتلاء الذي اشتد، انتهى.

والعبد الذي صبر، جاءه الفرج من عند الله.

لماذا كانت قصة أيوب عظيمة إلى هذا الحد؟

لأن الله سبحانه لم يذكر أيوب عليه السلام فقط بوصفه نبيًا ابتُلي، وإنما أثنى عليه بصفة عظيمة:

«(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۖ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)»

صابرًا: لم يجعله البلاء ساخطًا على ربه.

أوابًا: كثير الرجوع إلى الله.

وهذا درس مهم جدًا؛ فالغاية ليست فقط أن ينتهي البلاء، وإنما أن يخرج الإنسان من البلاء وقلبه أقرب إلى الله.

ماذا نتعلم من قصة أيوب عليه السلام؟

1. البلاء ليس دليلًا على أن الله لا يحبك

قد يُبتلى الإنسان وهو صالح، بل قد يكون البلاء سببًا في رفع منزلته.

ولهذا لا ينبغي أن يكون أول سؤال عند نزول المصيبة: لماذا أنا؟

بل يمكن أن يكون السؤال:

كيف أتعامل مع هذا البلاء بما يرضي الله؟

2. الدعاء يكون في أشد أوقات الحاجة

أيوب عليه السلام لم يترك الدعاء بسبب طول البلاء.

وهذا يعلمنا ألا نيأس من رحمة الله مهما طال الانتظار.

3. لا تستصغر الدعاء

دعاؤه كان موجزًا، لكنه خرج من قلب يعلم من هو ربه:

(وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ).

فليس المهم طول الدعاء، وإنما صدق القلب وافتقاره إلى الله.

4. الفرج بيد الله

قد يطول البلاء حتى يظن الإنسان أنه لن ينتهي.

لكن قصة أيوب تعلمنا أن تأخر الفرج لا يعني غيابه.

فالله سبحانه قادر على أن يغير الحال في لحظة.

5. الصبر ليس استسلامًا

الصبر لا يعني أن تترك الأسباب.

فالله أمر أيوب عليه السلام:

(ارْكُضْ بِرِجْلِكَ)

فكان هناك دعاء، وكان هناك أخذ بالأسباب.

وهذه قاعدة عظيمة: توكل على الله، واصبر، وخذ بالأسباب.

كلمة أخيرة

إذا كنت تمر الآن ببلاء لا يعرفه أحد، أو تحمل في قلبك همًا لا تستطيع أن تشرحه لمن حولك، فتذكر أيوب عليه السلام.

لا تجعل طول الطريق يجعلك تظن أن الله نسيك.

ولا تجعل شدة الألم تمنعك من الدعاء.

قد لا تعرف متى يأتي الفرج، لكنك تعرف من بيده الفرج.

وقصة أيوب عليه السلام لا تعلمنا فقط كيف نصبر حتى تنتهي المصيبة، بل تعلمنا كيف نبقى عبادًا لله ونحن داخل المصيبة.

فالله سبحانه ختم الحديث عن أيوب بقوله:

«(نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)»

وهذه ربما تكون أعظم ثمرة للصبر:

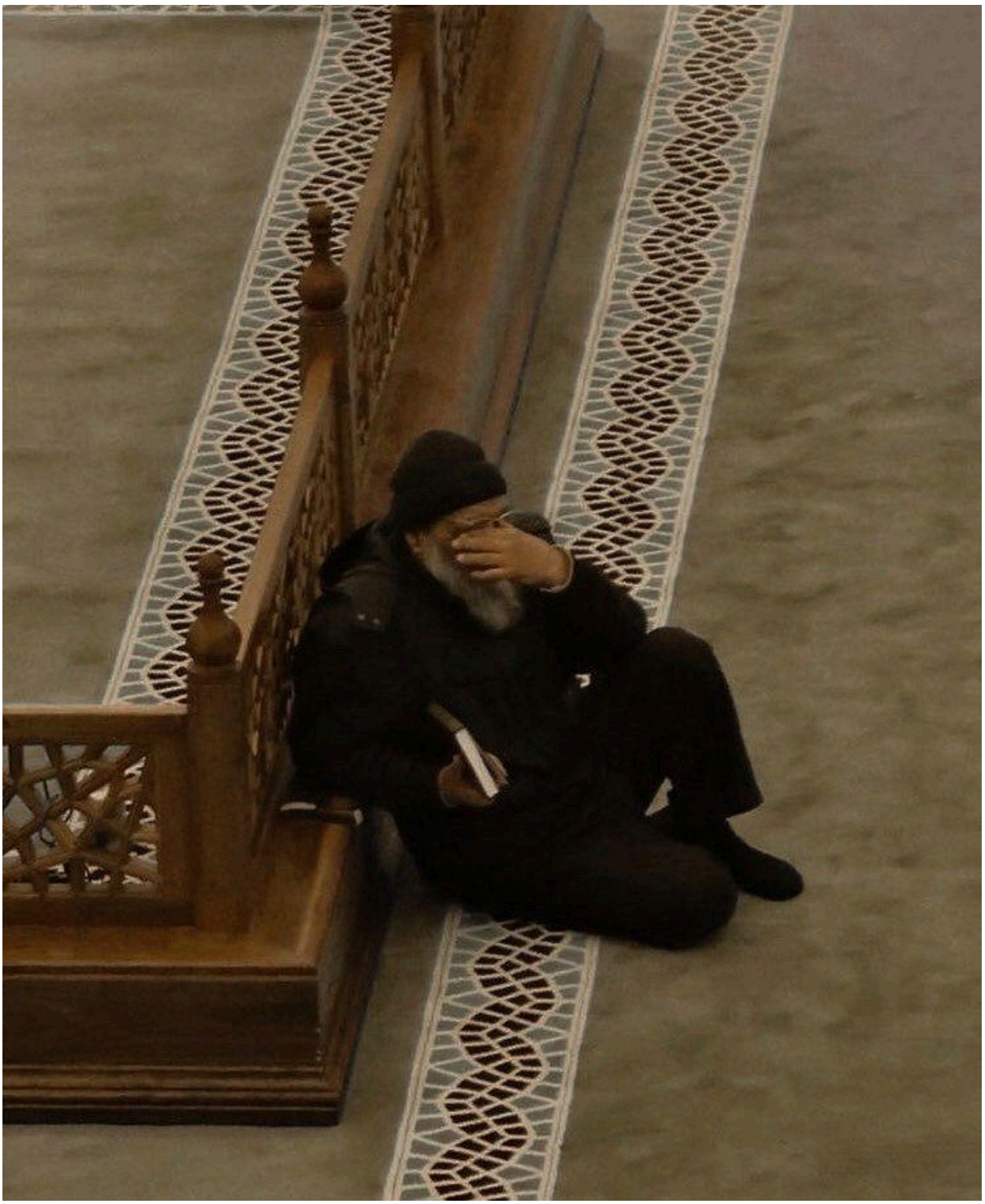

أن تخرج من البلاء وأنت أقرب إلى الله مما كنت قبله.

المصادر

- القرآن الكريم: سورة الأنبياء، الآيات 83–84.
- القرآن الكريم: سورة ص، الآيات 41–44.
- القرآن الكريم: سورة ص، الآية 44، في الثناء على صبر أيوب عليه السلام.